

الأميرة كريمة الصقلي... تلتقي أسمهان

«يا ليل ظل» في «حضرة» الطرب، في قصر بيت الدين



بعد يومين تفتتح «مهرجانات بيت الدين» بأمسية طربيّة تحييها المغربية كريمة الصقلي التي تعود إلى بيروت، هذه المرأة، حاملة معها التراث الأسمهاني تمهيداً للمناسبة خصّنا الأب إيلي كسرواني، رئيس قسم العلوم الموسيقية في «جامعة سيدة اللويزة» (لبنان)، بنصّ يضع تلك التجربة المهمّة في إطارها الفني والتاريخي

الأب إيلي كسرواني

سيد درويش ابن الإسكندرية، صانع النهضة الموسيقية العربية، سليل جيل سلامة حجازي وصالح عبد الحي ومحمد القصبجي، وفيما بعد زكريا أحمد وبيرم التونسي ونجيب الريحاني وبيديع خيرى... أم بلاد الشام، وهي تحت الحكم العثماني، لأول مرّة في 1909 مع فرقة سليم وأمين عطا الله ليمتحن موقعه في دنيا الطرب. وغنى على مسامع من عرفوا بأهل الأصالة في الشام وحلب وبيروت. غير أنّ أذنه العالية الثقافة والحس الموسيقي لم تمنح سيد درويش كل الرضى وإذا برحلته تبوء بالخيبة.

لدى رجوعه إلى مصر قال: «لقد استفدت في كلّ حال، إذ حفظت في حلب والشام وبيروت عن ظهر قلب، الألحان الكنسية والتواشيح وضروب الغناء القديم، ودرست على أساطين الموسيقيين عثمان الموصلي وسواه»..

وبعد سنتين من الذّأب نحو النضوج والتخمر في الإسكندرية، عاد يناطح النجاح من قمته، حيثّ خاب للمرّة الأولى، فقصّد الشام من جديد يستقرّ إعجاب «السميعة» هناك. وإذ نال إعجاباً ونجاحاً وشهرة، رجع إلى مصر متمكناً من نفسه ليقتحم المسرح الموسيقيّ والتأليف الأوبراتيّ والقصيدة والدور والموشّح والتأليف القديم والحديث معاً، وكان نجاحه في الشام «بمثابة مولد جديد لفنّه» حسب قول ابنه حسن سيد درويش في كتابه «من أجل أبي سيد درويش».

وكذلك عبد الوهاب، بعدما تعلم عزف العود على يد محمد القصبجي وبعدها غنى سلامة حجازي ومحمد عثمان وعبدو الحامولي، وإثر مواجهاته الغنائية مع عبد اللطيف البنا وصالح عبد الحي، ومرافقة سيد درويش وانتسابه إلى مدرسته في

التجدد وحضور أمير الشعراء أحمد شوقي إلى جانبه... زار حلب عام 1922 مع فرقة نجيب الريحاني، ففوجئ بأن عدد الحضور في الليلة الأولى من حفلاته لا يكاد يبلغ عدد أصابع اليدين. وإذ أبدى استغرابه قيل له: «أنت في حلب؛ وهذا العدد من الحضور هو بعضُ اللجنة الفاحصة. وستعلم غداً قدرَ نجاحك إذا تواكب عليك الحلبيون أم غرُّوا!». وجاءت الليلة الثانية مكتظة حقاً بالحضور بعدما خلب عبد الوهاب سمعَ «السميعة» الحلبيين ولبَّابهم. وبقي عبد الوهاب يُخبر هذه النادرة عن نفسه كلما التقى أهل حلب، كالفنان الأصيل صباح فخري، وقد سمعناها منه ومن سواه شخصياً، وقرأناها مدونةً في كتاب «النهر الخالد» بقلم الأديب سعد الدين وهبة»: إنها كانت لي مدرسة... وحاجة جديدة، جداً عالية.»

امتحان كريمة الصقلي في دمشق يُكافأ بتجديد العقد لأسمية ثانية. الفنانة كريمة الصقلي التي ستفتتح مهرجان «بيت الدين» 2008، إنسانٌ فصوت ولحن وتجويد وإنشاد وإحساس، موطنها مملكتان: المغرب والطرِب.

بعدما اكتنزت كريمة الصقلي تراث الموشح الأصيل العائد من الأندلس والمستقرّ في أرضها، و«الملحون المغربي» وهو التراث الشعبي باللغة المحكيّة بمقاماتها وإيقاعاتها الغنيّة، وبعدها شاءت أن تكون صوتاً صادحاً في أعماق ذاتها ربع قرن، أطلقت هذه الفنانة المغربية المتأصلة في 13 أيار (مايو) 2008 تسقي غليل آل الطرب في دمشق. عجّ «قصر العظم» بمجلس لا يُبالغ إن قلنا إنّه لجنة من «السميعة» بلغت حوالى ألف مستمع، أو قل: ألف منصت أو ألف صياد طرب أصيل، عربيّة بعربيّة وقلّة بقلّة...

افتتحت كريمة الصقلي أمسيّتها بموشح أندلسي مغربي: «يا ليل طل» وهو على مقام البياتي وإيقاع الوحدة الطويلة المتهادي، جاء قرار مقام البياتي على الدوكاه واللحن المناسب الهادئ مدخلاً للأسمية حكيماً ذا سلطان واستقرار. فصقّ الجمهور لبرهة قصيرة كأنه يقول: وماذا بعد؟

أتبعت كريمة الصقلي الموشح بطقطوقة لعبد الوهاب: «محلاها عيشة الفلاح» مختارةً إياها بحكمة على مقام البياتي أيضاً، فجاءت امتداداً للاستقرار الذي بسطته الموشحة الأولى في مسامع الجمهور وتمييزاً عن تلك الأولى بالحداء الشعبي لأهل الأرض، ما سمح للدمشقيين باكتشاف هذا الصوت المليء استقراراً وكرماً من دون أن يبخل بالحنان والفرح، فتضاعف الرضى وازداد تصفيق «السميعة» قليلاً كأنه باق على حذره. ثم قدّمت أغنية «القلب وإلّا العين» من خزنة سعاد محمد على مقام الراسـت وإيقاعها الثنائي المتلاعب بفرح بين الوزن ومعاكسته، فأحسّ الجمهور كيف تداعب كريمة الصقلي الطرب الخفيف وتلبسه رداء النبل، فتأكد ارتياحه وصقّق بما يكفي أن تشعر الفنانة بالترحاب، دون المزيد. ثم سلطنت آلات الطرب على مقام السوزناك، لتسترسل كريمة بأداء «هذه أنوار ليلي» موال من الشعر الصوفي لعائشة البعونية بنت بلاد الشام التي اختارت لثراها حلباً، مستقرّاً أخيراً. وباروعة من أنوار! فبلحظة خاطفة، تهدّلت الأنعام على مقامي الحجاز والراست وعائليتهما. انطلق صوت كريمة الصقلي من القرار رثيقاً بوقع الشعر حلماً بوزن قوافيه مستقرّاً حيث بدأ، بعد تفقد حنايا المقام بتؤدة ونعمة، أب اللحن على فيها، كنقطة المياه، إلى منبعه، ليُسدل على الجمهور شعوراً بالرؤيا المنظورة أو «بالحضرّة» المحسوسة، يُرجع في خاطره عود المخلوق إلى خالقه.

ارتجلت كريمة الصقلي ألقاناً وألقاناً، على متن عشق عائشة البعونية. جادت وعالجت فنّ الصوت وعلم العروض وفقه المعاني الصوفية معاً بكل جدارة. فأدرك المجلس الأصيل أن كريمة الصقلي تقبض على ملكة الطرب بعلم وصنعة

وسلطان، وأنها تُنشدُ لمتعتها حتى لينجرف السامع بزهو هذا التمتع الجواني انجرافاً. علم الحاضرون أنها لم تختَر الغناء، إنما الغناء اختارها ونذر لها في هيكل المقام المقدس. وعندها، لا تسل يا صديقي ما جرى في قصر العظم، كيف تعانقت النهداث وعلت الآهات، وهبط السحر مع غناء صار صلاةً في صوت كريمة الصقلي. وكمن يُسابق شعوراً بالملء والكمال، انتصب الجمهور الدمشقيّ والحليّ يصفق واقفاً والأمسية لمّا تزلُ بعدُ في بدايتها. ولم تمض ليلةٌ على هذا الإنجاز حتى علا صوتُ صباح فخري وحمزه شكور والدكتور نبيل اللو والدكتورة حنان قصاب حسن... بين أصوات الجماهير الدوافة، تطالب كريمة الصقليّ بأمسية ثانية، ما اضطرّها إلى تأخير سفرها إلى البحرين لتلبية الطلب الغالي بحب وامتنان. وها هي اليوم كريمة الصقليّ تستعدّ لافتتاح «مهرجانات بيت الدين — 2008 ليلة السبت 12 تموز (يوليو). فما عساها تكون تلك الليلة في بيت الدين؟ إني لأرى طنطور الأميرات في قصر بيت الدين يترنح منذ الآن لما ستؤديه كريمة الصقليّ من ألحان تكشف ثراء خزانة العملاقة أسهان من الغناء الشرقيّ والغربي والطرب الثقيل والطرب الخفيف والغناء الأوبراتي في أشكال القصيدة والطقوقة والمونولوج والنشيد...

سأجذك ليلة 12 تموز/ يوليو التي تفتتح مهرجانات بيت الدين، جليس الأميرة كريمة الصقليّ، وحولها عقدان: عقدٌ من الشعراء يوسف بادروس وأحمد رامي ويلي الفقيه وأحمد شوقي وبيرم التونسي والأخطل الصغير وعبد العزيز سلام ومأمون الشاوي... وعقدٌ خالصٌ آخر من الموسيقيين المبدعين: محمد القصبجي وشقيق أسهان فريد الأطرش وفريد غصن وعبد الوهاب وذكريا أحمد ومدحت صالح...

وسأجذني هناك متنصتاً لأشهد كيف تُوقَفُ كريمة الصقليّ الزمَنَ في النغم ولو ظنَّ النغمُ أنه زمنٌ من رحيل.